

فن المسرح الجزائري

يعد المسرح أحد الفنون الأدبية الأدائية الذي يعتمد أساسا على ترسيخ الأفكار في ذهن الجمهور فهو ليس وسيلة للترفيه و المتعة فحسب بل يعد مؤسسة تربوية تهتم جميع الطبقات الاجتماعية، و يسعى المسرح إلى إحياء التراث و الماضي. بصورة تتناسب مع مطامح الجمهور من جهة، كما يعمل على بث الوعي و النهضة الاجتماعية والسياسية والفكرية من جهة أخرى [1] فضلا عن مساهمته في التنمية العقلية للأفراد وتحقيق السلوك الطيب عندهم من خلال التأثير فيهم.

و مهما قلنا عن المسرح فإن أهدافه تتعاضد و تتكاثف ليصبح مظهرا تقدم الأمم ورقبها. إلا أن ما يلاحظ عن الكتابة حول هذا الأخير صعبة جدا. و هي محاطة بالعراقيل التي تحول دون الإلمام بموضوع الكتابة. خاصة إذا تعلق الأمر بالكتابة من المسرح الجزائري. سيما البدايات الأولى له. و لعل السبب في ذلك و كما تذكر المصادر قلة الدراسات المتعلقة بهذا الأمر التي تتحرى الدقة و الموضوعية حول مميزات المسرح الجزائري.

إلا أن ما يتفق عليه الباحثون في قضية جذور أو بدء المسرح الجزائري كان عبارة عن عروض شعبية و غناء شعبي يقام في المقاهي، ففي بداية الأمر لم يعرف العالم الجزائري المسرح بمفهومه الغربي بل كان يمارس أنواعا و أشكالاً من مظاهر العرض الشعبي [2] كان هذا في كافة أقطار الوطن العربي و ليس في الجزائر فحسب. و ابرز هذه العروض نجد ما عرف "بالمداح و القوال". و هي عبارة عن دراما شعبية و ظل هذا النوع مستمرا حتى احتلت الجزائر من قبل فرنسا عام 1930 ليقوم الفرنسيون عام 1850 بتشديد دار الأوبرا بالجزائر العاصمة [3] فكان أن زاد عدد من المثقفين و الفنانين الفرنسيين لهذه الدار.

إن الزيارة الأولى كانت من قبل "دوما الإبن" سنة 1864 بعرض مسرحية "غادة الكاميليا" لتأتي في 1889 سارا بارنار و تعرض مسرحيات مشهورة في دار الأوبرا بالجزائر كمسرحية "القلق"، "فيدرا"، و هما من تأليف "راسين".

و بعد هذا نجد أن المسرح الجزائري استطاع أن يقدم أول عرض مسرحي من خلال مسرحية "في سبيل الوطن" حيث كان يوم عرضها في 22 ديسمبر 1922 [4] من إخراج الكاتب محمد رضا المنصلي. و هي دراما اجتماعية مكونة من فصلين كان قد عرضها هذا الأخير بعد عودته من لبنان إلى الجزائر ليؤسس بذلك فرقة التمثيل العربي. و تعد هذه المسرحية أول مسرحي قدم بالعربية في تلك الفترة في الجزائر. وحسب راي: د/ عمرون فإن كل المحاولات التي سبقت مسرحية "في سبيل الوطن" تعد عروضاً فنية شعبية تدخل في إطار الأغاني و العروض الشعبية "مظاهر الفرجة الفنية".

كما يضيف الباحثون أن البداية الفعلية للمسرح الجزائري كانت مع زيارات الفرق المصرية إلى الجزائر "فرقة جورج أبيض" قبل سنة من ظهور مسرحية "في سبيل الوطن". كان ذلك ضمن رحلتها إلى شمال إفريقيا. أعقب ذلك زيارة فرقة "فاطمة رشدي" و فرقة "محمد عز الدين" و غيرها. [5]

و نظراً لنقص الخبرة و التجربة الفنية مع ممارسته السلطات الاستعمارية من تصنيف و محاصرة للغة العربية الفصحى. أدى ذلك إلى فشل طريق الإبداع المسرحي الجزائري، لتأتي سنة 1925 و التي سعى من خلالها المؤلفون إلى كشف مضمون المسرحيات في الدول التي سبقت إلى اكتشاف فن المسرح، فاعتمدت المسرحية على الفلكلور المحلي و يظل المسرح لفترة طويلة بعيداً عن تناول المثقفين. و لذلك ظل الممثل الجزائري هو المؤلف أيضاً، لتجيء في هذه الأثناء مسرحية "جحا" التي كتبها وأخرجها الكاتب الجزائري علي سلالي (علالو). كان ذلك سنة 1926 حيث اجتذبت جمهوراً كبيراً وصل إلى 1500 متفرج [6] بذلك يكون علالو قد وضع حجر الأساس للمسرح الجزائري. حيث استطاع تجسيد عادات مسرحية في أوساط الجماهير الجزائرية حيث استعمل فيها اللغة الشعبية لغة عامة الشعب، أي استعمل اللغة التي يفهمها الجمهور و ينفعل معها و ليس باللغة السوقية الرديئة إنما هي لغة عربية ملحونة و منتقاة. و بهذا أراد علالو أن يطور المسرح الجزائري. و ذلك عن طريق مخاطبة الجمهور بلغته التي يتكلم بها في حياته اليومية و المعبرة عن هويته

وثقافته التي ينتسب إليها بعيدة كل البعد عن الشكل المسرحي الأوروبي الذي حاول أن ينمط الجمهور الجزائري و يجعله متأثرا و مقلدا لهذا المسرح.

و في هذه الأثناء جاء مسرحية "بابا قدور الطماع" للكاتب رشيد قسنطيني و هي مسرحية كوميدية من تأليفه و إخراجة و قد عرضت هذه المسرحية يوم 23 ديسمبر 1929. أعقبها بمسرحية ثانية تحت عنوان "بوبرما" و بهذا يكون المسرح الجزائري عصره الذهبي حيث استطاع رشيد قسنطيني إدخال الأداء المرتجل إلى المسرح الجزائري [7].

يقول علي الراعي عن ذلك: ألف رشيد أكثر من ألف مسرحية و اسكاتش وقرابة ألف أغنية. و كثيرا ما كان يرتجل التمثيل حسبما يلهمه الخيال، و تناول عرض هذه المسرحية بلغة الشعب. تناول فيها الكثير من الشخصيات الشعبية بأسلوبه المتأثر بالكوميديا "ديلارته" الإيطالية ثم عرفت الجزائر مسرحيات "النساء" و "الخداعين" من تأليف محيي الدين بشطارزي. عرضت عام 1937. وظف كاتبها لغة تعبير مسرحي متقدمة متجذرة في التراث الشعبي الوطني. تعبر أكثر عن احتياجات الجماهير.

إلا أن هذه الأعمال كانت قد لفتت السلطات الاستعمارية و التي سعت إلى تشديد الخناق على المسرح لتحول دون تطويره و السير به إلى الأمام. استمر هذا الانقطاع إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية. لتشكل هذه الفترة انقطاع الكتابة المسرحية و انحصار دائرتها لانشغال الكتاب بأمور أخرى [8]

بعد هذه الفترة نجد المسرح الجزائري قد اعتمد على المترجم من المسرحيات الأجنبية و اللجوء إلى المقتبس من ذلك. ظهر ذلك في أعمال كاكي عبد الرحمن مع رواية المداح و قصة الأولياء، استعمل فيها لغة شعبية قي قالب في قالب شعري مقفى بأسلوب محكي، قد شكل قصائد شعرية ملحونة و مطلوبة بأسلوب ملحمي، و هي تعبر حقيقة عن الحدث الدرامي، و ذلك باستعماله للشعر الملحون المنقول عن الشعراء الشعبيين كسدي لخضر بن خلوف و سيدي عبد الرحمن المجدوب و ذلك لاستلهام التراث الشعبي وعصرنته حسب روح العصر و أذواق الجمهور، و يعد مسرحياته الموسومة بـ "بني كلبون"، "القراب و الصالحين"، "كل واحد و حكمه"، "ديوان الملاح" من أهم التجارب المسرحية في الجزائر، و التي دفعت بالمسرح الجزائري مسافة بعيدة

إلى الأمام [9]، و جعلته يحذو ركب الأداء المسرحي الغربي، حيث استطاع كافي من خلالها أن يدخل على المسرح الجزائري نوقا جماليا من خلال القصائد الشعبية المتخللة لمسرحياته . [10]

و ظل المسرح الجزائري يمتاز باستخدامه للغة الشعبية المعبرة عن الواقع السياسي و الاجتماعي للطبقات الشعبية، حتى ظهرت أعمال كاتب ياسين و تجاربه العامة في محاولة الكتابة باللغة العربية الفصحى.

و تأتي فترة الاستقلال و تصدر الدولة مرسوما يقضي بتأميم المسرح على مستوى التراب الوطني الجزائري، حيث تشكلت فرقة المسرح الوطني الجزائري [11]، و التي استطاعت أن تقدم أكثر من 41 عرضا مسرحيا ما بين عامي 1963-1973، و كانت قد قدمت 52 عرضا مسرحيا ما بين عامي 1973-2000 .

أما في السنوات الأخيرة فقد شهد المسرح الجزائري نشاطا كبيرا، حيث وصل المسرح قمة في الإنتاج، حيث وصل إلى 47 عملا مسرحيا برهن على إبداعات الشباب في مجال المسرح و تنوعت في نصوصه [12] بفضل إبداعات زهور ونيسي ورشيد ميموني و غيرهما من الكتاب المسرحيين الذين ساهموا في إثراء الإنتاج المسرحي الجزائري، و وصلت العروض المسرحية سنة 2007 إلى أكثر من 775 عرض مسرحي موزع على 45 ولاية [13]، و ذلك في إطار ما عرف بتظاهرة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، فكان العرض فيها موزع على رزنامة زمنية محددة تضمن 45 إنتاجا مسرحيا بمعدل إنتاج 12 عملا مسرحيا جديدا، كل أسبوع يعرض ثلاث مرات متتالية في المسرح الوطني الجزائري [14] و يوزع 15 إلى 25 عرض مسرحي عبر مختلف ولايات الوطن، و كانت البداية مع مسرحية الحكواتي الأخير بنص مغربي وإخراج تونسي و ممثلين جزائريين، و التي كانت ورشة حقيقية للتلقين والتعلم، إلى جانب ورشة مسرحية " شخوص و أحداث" التي قام بتأطيرها المخرج العراقي قاسم محمد [15]. كان قد شارك فيها ثمانون فنانا و قد تم تقديم 12 عرضا مسرحيا باللغة العربية الفصحى و مسرحيتين باللغة الأمازيغية .

و بهذا يكون المسرح الجزائري قد شهد نشاطا كبيرا في هذه السنة (2007) حيث اعتبرت هذه العروض ناجحة رغم التفاوت بينها و توافد الجمهور إليها يعتبر

بداية البدايات الأولى لفن المسرح الجزائري و بذلك استطاع أن يستعيد عافيته ويبرهن على وجوده، كما تم عرض مسرحية الصنهاجي من تأليف و إخراج الجزائري خالد بلحاج. استعملت فيها بعض الحوارات باللغة العربية الفصحى و قليل من لغة الجسد، هذه المسرحية جذبت الكثير من الدول العربية كمصر فكانت في متناول الجمهور على خلفية اللغة الفصحى المستعملة في العرض، لتحقيق بذلك الاحتكاك مع المجتمع العربي عامة .

و ما يلاحظ عن المسرح الجزائري في السنوات الأخيرة أنه شهد ارتفاعا في الإنتاج و قمة في الإبداع و استعمال اللغتين العربية الفصحى و اللغة الشعبية الجزائرية، و هذا ما يجعله يتميز هن المسرح الفرنسي المستخدم للغة الفرنسية، و من أشهر المسرحيات المنجزة في العصر الحديث "الشهداء يعودون" و هي تتحدث عن مرحلة انتقاد لنظام جزائري[16].

إن اختيار الجزائر مدينة عاصمة الثقافة العربية خلال عام 2007، يعد أحد المظاهر لإحياء اللغة العربية بصفة عامة وتطوير للمسرح الجزائري بصفة خاصة، فما ظهر على المسرح من تمثيل عدد من المسرحيات العربية و العالمية بلغة عربية فصحى راقية كمسرحية "هاملت بدون هاملت" التي كتبها المؤلف المسرحي العراقي حزعل الماجدي[17] و قد تم تمثيلها في إحدى البلدان التي كانت مسرحا للمعارك بين قوى الأمن و الجيش من جهة، و الجماعات المسلحة من جهة أخرى، وهناك أيضا إبداعات أخرى في مجال الانتاج المسرحي المسرحية الروسية "انسوهيرو سترات" المعربة باللغة العربية الفصحى، ومسرحية "الحكواتي" للكاتب المغربي المنجي بن ابراهيم.

و مما لاحظته النقاد و الأدباء الجزائريون المهتمون بالأداء المسرحي ما تتميز به هذه المسرحيات و غيرها من المسرحيات التي أنتجت خلال عام 2007 و قبله من لغة عربية فصحى جميلة و راقية سواء كما عبرت في النص المسرحي أو كما عبرت عنه السنة الممثلين [18].

و قد سعى الكثير من اللغويين و المبدعون الجزائريون إلى الارتقاء بلغة المسرح نصا و تمثيلا، ومن هؤلاء الشاعر بوزيد حرز الله، الذي ساهم بقدر كبير في

تدقيق نص مسرحية "لغة الأمهات" و هي تعد من أنجح المسرحيات المعروضة لعام 2007 [19] و تم عرضها في مهرجان قرطاج، وحظيت بإعجاب المشاهدين .

أخيرا قد عرف المسرح الجزائري نشاطا كبيرا في الفترة الأخيرة، بعدما عرف في مرحلته الأولى إنتاجا متوسطا متميزا باستخدام اللغة الشعبية القريبة من الجمهور، ليتميز في هذه المرحلة المتأخرة باستخدام اللغة العربية الفصحى، حيث كان هناك نهوضا حقيقيا تأليفا و تمثيلا، و على الخصوص ما وجد في عام 2007، حيث أصبحت أعداد كبيرة من الممثلين و المؤلفين يستعملون العربية الفصحى، و يفضلونها على العامية و الفرنسية، حتى وجد من الممثلين من لا يقبل الأداء إلا بالفصحى .

و بهذا نقول أن المسرح الجزائري قد خطى خطوات هامة في تاريخه و قد تمكن من إثبات وجوده أمام المسرح الغربي عامة و المسرح العربي خاصة .

مبدوعة كريمة

الهوامش:

- [1] تاريخ المسرح عبر العصور. مجيد صالح بك. الدار الثقافية للنشر ط1. 1422-2002م . القاهرة. ص 22.
- [2] لمحة تاريخية عن المسرح الجزائري. زيان محمد. الجزائر. ص23.
- [3] أدب الأطفال. دافوزي عيسى. منشأة المعارف1988. الاسكندرية. ص89.
- [4] تاريخ المسرح عبر العصور. مجيد صالح بك . ص 23
- [5] لمحة تاريخية عن المسرح الجزائري. زيان محمد. ص 23
- [6] المرجع نفسه. ص 22
- [7] المرجع نفسه. ص 24
- [8] لغة المسرح الجزائري بين الهوية الغيرية. بوعلام مباركى. مجلة حوليات التراث. مستغانم. الجزائر . ص 53.
- [9] المرجع نفسه. ص 53
- [10] المسرح الجزائري. أحمد بيوض. الجاحظية. ص 23
- [11] المرجع نفسه. ص 23
- [12] لمحة تاريخية عن المسرح الجزائري. زيان محمد. ص 24
- [13] المسار المسرحي الجزائري إلى سنة2000. أنور محمد. شركة باتنيت. الجزائر2006 ص 271
- [14] المصدر نفسه . ص 272
- [15] المسرح الجزائري. أحمد بيوض. الجاحظية. ص 24
- [16] المسار المسرحي الجزائري. أنور محمد. ص 272.
- [17] المصدر نفسه. ص 272.
- [18] المصدر نفسه. 273
- [19] المصدر نفسه. ص 273 .